

خطبة بعنوان: أخلاق الصائمين وأثرها في صلاح الفرد والمجتمع

عناصر الخطبة:

العنصر الأول: أهمية الأخلاق ومكانتها في الإسلام

العنصر الثاني: أثر العبادات في تهذيب أخلاق الفرد والمجتمع.

العنصر الثالث: أخلاق الصائمين بين الواقع والمأمول.

أما بعد:

المقدمة:

العنصر الأول: أهمية الأخلاق ومكانتها في الإسلام

للأخلاق أهمية كبرى في الإسلام، ولو نظرنا إلى الدين الإسلامي لوجدناه ينقسم إلى ثلاثة أقسام: عقيدة وتمثل في توحيد الله تعالى، وشريعة: وتمثل في العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج وغيرها، وأخلاق: وتمثل في الأخلاق الفاضلة في التعامل مع الآخرين. وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة يمثل ثلث الإسلام، فالعقيدة تمثل ثلث الإسلام، لذلك كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن لاشتمالها على الجانب العقدي، فعن أبي سعيد الخدري: **أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يُرَدِّدُهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالُهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ " (متفق عليه) ، وكذلك العبادات تعدل ثلث الإسلام، والأخلاق - التي يظن البعض أن لا علاقة لها بالدين - تعدل ثلث الإسلام، بل الإسلام كله كما سيأتي مفصلاً.**

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن الهدف من بعثته هو غرس مكارم الأخلاق في أفراد المجتمع حيث قال: **" إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَاحِخَ الْأَخْلَاقِ " [السلسلة الصحيحة للألباني].** قال المناوي: أي أرسلت لأجل أن أكمل الأخلاق بعد ما كانت ناقصة، وأجمعها بعد التفرقة.

وقد وقف العلماء عند هذا الحديث قائلين: لماذا حصر النبي بعثته في مكارم الأخلاق مع أنه بعث بالتوحيد والعبادات وهي أرفع منزلة وأهم من الأخلاق؟!!!

والجواب: أن التوحيد والعبادات شرعت من أجل ترسيخ مكارم الأخلاق بين أفراد المجتمع، فالغاية والحكمة الجليلة من تشريع العبادات هي غرس الأخلاق الفاضلة وتهذيب النفوس؛ كما هو معلوم في الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها كما يأتي مفصلاً في العنصر الثاني.

ولأهمية الأخلاق أصبحت شعاراً للدين (الدين المعاملة) فلم يكن الدين صلاة ولا زكاة ولا صوم ولا غير ذلك. قال الفيروز آبادي -رحمه الله تعالى-: **"اعلم أن الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق؛ زاد عليك في الدين"**.

لذلك عد حسن الخلق من كمال الإيمان فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً [صحيح سنن الترمذي للألباني].** قال المباركفوري: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً): لأن كمال الإيمان يوجب حسن الخلق والإحسان إلى كافة الإنسان، (وخياركم خياركم لنسائهم): لأنهن محل الرحمة لضعفهن.

ولأهمية الأخلاق كان حسن الخلق طريقاً إلى الجنة كما أن سوء الخلق طريق إلى النار، وفي السنة شواهد كثيرة على ذلك:

فعن أبي أمامة قال: **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَيْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمَرْءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَارِحًا، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ " [السلسلة الصحيحة - الألباني]**

وَعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أْبَعَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ التَّرْتَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَمَتِّعُونَ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: قَدْ عَلِمْنَا التَّرْتَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَمَتِّعُونَ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ" [السلسلة الصحيحة - الألباني]

وَعَنْ أَبِي الدرداء - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم " مَا مِنْ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ تُنْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ " (أبو داؤد)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سئِلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ: " تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ " وَسئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ فَقَالَ: " الْفُحْمُ وَالْفِرْحُجُ " [السلسلة الصحيحة - الألباني] ، كما أن خلقاً واحداً من بين سائر الأخلاق قد يكون سبباً في دخولك الجنة، فعن رُبَيْعِ بْنِ حِرَاشٍ قَالَ: اجْتَمَعَ حَدِيثُهُ وَأَبُو مَسْعُودٍ فَقَالَ حَدِيثُهُ: رَجُلٌ لَقِيَ رَبَّهُ فَقَالَ مَا عَمِلْتَ؟ قَالَ: مَا عَمِلْتُ مِنَ الْحَيْرِ إِلَّا أَيُّ كُنْتُ رَجُلًا ذَا مَبَالٍ فَكُنْتُ أَطْلُبُ بِهِ النَّاسَ فَكُنْتُ أَقْبَلُ الْمَيْسُورَ وَأَتَجَاوَزُ عَنِ الْمَعْسُورِ، فَقَالَ: تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي " (مسلم) فهذا الرجل لم يعمل خيراً قط سوى خلقٍ واحدٍ فكان طريقاً له إلى الجنة فما بالك لو تحليت بمكارم الأخلاق كلها؟!!

لذلك اهتم الصحابة بحسن الخلق وطلبه من الله، فعن أُمِّ الدَّرْدَاءِ قَالَتْ : بَاتَ أَبُو الدَّرْدَاءِ اللَّيْلَةَ يُصَلِّي فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَقُولُ : " اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي، حَتَّى أَصْبِحَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، مَا كَانَ دُعَاؤُكَ مُنْذُ اللَّيْلِ إِلَّا فِي حُسْنِ الْخُلُقِ، قَالَ: يَا أُمَّ الدَّرْدَاءِ، إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ يَحْسُنُ خُلُقَهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ حُسْنُ خُلُقِهِ الْجَنَّةَ، وَيَسُوءُ خُلُقَهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ سُوءُ خُلُقِهِ النَّارَ " (شعب الإيمان للبيهقي)

ولا يقتصر حسن الخلق مع الناس وحسب، بل إحسانك إلى البهائم كذلك يكون سبباً في غفران ذنوبك ودخولك الجنة: فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكْبَةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ؛ إِذْ رَأَتْهُ بَعِيٌّ مِنْ بَعَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَزَرَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَعَفَّرَ لَهَا بِهِ " (البخاري)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَبَزَلَ بَيْزًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ؛ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ التُّرَى مِنَ الْعَطَشِ. فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ حُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَعَفَّرَ لَهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبِهَائِمِ أَجْرًا؟! قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ " (البخاري)

انظر إلى هؤلاء الأفراد جميعاً، ما فعلوا كثير صلاة أو صيام أو صدقة، ولكن كانت حسناتهم الأساسية هي حسن خلقهم الذي أدى لمغفرة الله لهم، ومن ثم دخولهم الجنة. وعلى النقيض من ذلك، انظر إلى عاقبة سوء الخلق:

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "عُدْبَتُ امْرَأَةٍ فِي هَرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارُ ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ حَشَائِشِ الْأَرْضِ " (متفق عليه)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَجُلٌ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فَلَانَةَ يُدَكَّرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا. قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ فَلَانَةَ يُدَكَّرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا وَإِنَّهَا تَصِدَّقُ بِالْأَنْوَارِ مِنَ الْأَيْطِ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا. قِيلَ: هِيَ فِي الْجَنَّةِ " [صحيح الترغيب والترهيب - الألباني] فانظر كيف لم تُجدِ كثرة العبادة مع انعدام حسن السلوك!! بل

انظر ماذا فعل حسن الخلق رغم قلة العبادة!!!

قال الجنيد: أرفع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه، الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق .

ويقول ابن حبان - رحمه الله تعالى - : "الواجب على العاقل أن يتحجب إلى الناس بلزوم حسن الخلق، وترك سوء الخلق، لأن الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل، وقد تكون في الرجل أخلاق كثيرة صالحة كلها، وخلق سيئ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الصالحة كلها"

إن حسن الخلق يرفع العبد منزلة عند الله حتى يبلغ درجة الصائم القائم، فعَبْنُ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحَسَنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ" [السلسلة الصحيحة - الألباني]

وكما أن حسن الخلق يوجب الجنة فكذلك يحرم صاحبه على النار. فعَبْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟! عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ" [السلسلة الصحيحة - الألباني]

وهكذا تظهر أهمية الأخلاق ومكانتها حتى أصبحت شعاراً للدين تمثله كله.

العنصر الثاني: أثر العبادات في تهذيب أخلاق الفرد والمجتمع.

لم يشرع الإسلام العبادات بكافة صورها طقوساً ولا شعائر مجردة من المعنى والمضمون، بل إن كل عبادة تحمل في جوهرها قيمة أخلاقية مطلوب أن تنعكس على سلوك المسلم المؤدي لهذه العبادة، وأن تتضح جلياً في شخصيته وتعاملاته مع الغير، وأيضاً فيما يرسمه لذاته من إطار يحرص على الالتزام به ولا يجيد عنه.

عباد الله: إن كثيراً منا يخطئ حينما يفصل العبادة في الإسلام عن السلوك، ولم يصبح هدف البشر الآن إلا التعبد دون أدنى اهتمام بتحقيق الثمرة المرجوة من العبادة، ألا وهو حدوث ترقية النفس!! ودائماً تُقرن نصوص القرآن والسنة الكلام عنهما.

ولو طوفنا حول جميع العبادات لوجدنا الهدف منها هو تهذيب الأخلاق وتركيتها، فالزكاة المفروضة - مثلاً - ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب، بل هي أولاً غرس لمشاعر الحنان والرأفة، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة بين شتى الطبقات، وقد نص القرآن على الغاية من إخراج الزكاة بقوله: " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صِدْقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ" [التوبة/ ١٠٣]، فتطهير النفس من أدران النقص، والتسامي بالمجتمع إلى مستوى أنبل هو الحكمة الأولى، والناظر في هذه الآية يرى أن فيها بياناً لأثر الزكاة على المركزي من حيث تهذيب نفسه وإصلاحها، والمقصود هنا تطهيرهم من ذنوبهم التي لا بد أن تقع منهم، حيث الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، ومعلوم أن الخطايا قد تكون مادية كما تكون معنوية، ومن جملة الخطايا المعنوية البخل والشح، وقد ذمهما الله تعالى، حيث قال عز وجل، "هَأَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ" (محمد: ٣٨)، ويقول الله تعالى: "وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (الحشر: ٩)، حيث البخل والشح قيمتان سلبيتان في نفس الإنسان، بوجودهما لا يمكنه أن يمد يد العون لغيره من المحتاجين، فينتج عن ذلك آثار سلبية أخرى في نفوس هؤلاء المعوزين، حيث يرمقون هذا الغني البخيل بعين الغيظ والحقد والحسد، والحق على من أعطاه الله من ماله، وحبس حق هذا المال عن عياله، فالخلق عيال الله كما ورد في الحديث القدسي، وعلى ذلك يسود المجتمع بخل وشح وتقتير، وحبس لحقوق الفقراء من أموال الأغنياء، وحنق وحسد وغيظ، وكل هذه صفات نحى الشرع عنها، لأنها كفيلة على قتلها أن تفتت كيان المجتمع، وأن تحل عرى الوفاق بين أفرادها، فمجتمع لا يسوده الحب والوئام، هو مجتمع ضعيف هزيل، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه أي شر أو أذى، ثم إنه لا يستطيع أن يكون له دور في ترقية الحياة والسمو بها.

ومن أخلاق الزكاة أيضاً النهي عن المن في العطاء، فإذا أعطيت المحتاج مالا ثم مننت عليه، فقد أبطلت صدقتك، وهكذا تكون للزكاة علاقة وطيدة بغرس القيم والأخلاق والتراحم بين أفراد المجتمع ولهذا الغاية العظمي فرضت زكاة الفطر في رمضان، فعَبْنُ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَكَاةَ الْفِطْرِ طَهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّعْوِ وَالرَّفَثِ وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ" [صحيح الترمذي والترغيب والترهيب - الألباني] ، وكل هذه معاني وأخلاق نبيلة يطهر بها الشرع أفرادها ظاهراً وباطناً.

وفي الصلاة، تأتي الحكمة العليا منها في قوله تعالى: "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ" (العنكبوت: ٤٥) فأنت مأمور في أداء الصلاة في جماعة، لكي تحتك بالناس وتتفاعل معهم وتربطك بهم صلوات وتواد

وتراحم، فضلاً عن أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فالفحشاء والمنكر هما جماع الأقوال البذيئة والأفعال السيئة، وهما لا يظهران إلا في التعامل مع الناس في المجتمع.

وفي الصيام نعلم أن رمضان هو شهر الأخلاق ومدرستها، فهو شهر الصبر، وشهر الصدق، وشهر البر، وشهر الكرم، وشهر الصلة، وشهر الرحمة، وشهر الصبح، وشهر الحلم، وشهر المراقبة، وشهر التقوى، وكل هذه أخلاق يغرسه الصوم في نفوس الصائمين وذلك من خلال قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقرة: ١٨٣)، بكل ما تحمله كلمة التقوى من دلالات ومعان إيمانية وأخلاقية، ويربي الرسول صلى الله عليه وسلم الصائمين على أرفع القيم الخلقية وأنبهها حيث يقول: "الصِّيَامُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَزُفُثُ وَلَا يَصْحَبُ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيُثَلِّ: إِيَّيْ امْرُؤُ صَائِمٍ" (البخاري ومسلم)، فالصوم حنة أي وقاية من جميع الأمراض الخلقية، ويفسره ما بعده "فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَزُفُثُ وَلَا يَصْحَبُ" فإن اعتدى عليك الآخرون بسب أو جهل أو أذى فقل: "إِيَّيْ امْرُؤُ صَائِمٍ" وليس هذا على سبيل الجبن والضعف والخور؛ بل إنها العظمة والسمو والرفعة التي يربي عليها الإسلام أتباعه، وسواء كان هذا القول تلفظاً صريحاً، أو كان تذكيراً داخلياً لنفسه بأنه صائم، فكلاهما فيه: تذكير النفس بحفظ الصيام من اللغو الذي قد يفسده، وفيه نوع من أنواع الصبر الكثيرة التي تجتمع في الصيام. والمعني: إني في غاية التقوى والتحلي بأخلاق الصيام، ولا ينبغي لي أن أفسد صومي بالرد عليك بهذه الأقوال البذيئة، فإذا حاول إنسان استفزازك بما يملك على رد إساءته، ومقابلة سبه بسب، فعليك أن تدرك أن الصوم يحجزك عن ذلك لأنه حنة ووقاية من سيء الأخلاق.

وفي الحج يغرس القرآن أسمى المعاني الأخلاقية في نفوس الحجاج والمعتمرين من خلال قوله تعالى: "الْحُجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحُجَّ فَلَا رَفِثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحُجِّ" [البقرة/١٩٧]، فقد يظن الإنسان أن السفر إلى البقاع المقدسة رحلة مجردة عن المعاني الخلقية، بل أنت مأمور بضبط الأخلاق أثناء الزحام، كما يجب عليك اجتناب الرفث والفسوق والجidal والخصام في الحج، فضلاً عن غرس قيم الصبر وتحمل المشاق والمساواة بين الغني والفقير والتجرد من الأمراض الخلقية.

إن العبادات لا يمكن أن تؤتي ثمرتها المرجوة إلا إذا ظهر أثرها في سلوك المرء وأخلاقه وتعامله مع الآخرين، فمن لم تنته صلواته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له، ومن لم ينه حجه وصومه عن اللغو والرفث والفسوق فما انتفع بحج ولا بصيام..... وهكذا عباد الله: هذا العرض الجمل لبعض العبادات التي اشتهر بها الإسلام، وعرفت على أنها أركانها الأصيلة، نستبين منه متانة الأواصر التي تربط الدين بالخلق، إنها عبادات متباينة في جوهرها ومظهرها، ولكنها تلتقي عند الغاية التي رسمها الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: "إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق"، لأنها كلها شرعت من أجل الأخلاق كما دللنا على ذلك بشواهد صحيحة من القرآن والسنة. فالصلاة والصيام والزكاة والحج وما أشبه هذه الطاعات من تعاليم الإسلام هي مدارج الكمال المنشود، وروافد التطهر الذي يصون الحياة ويعلى شأنها، ولهذه السجاي الكريمة التي تنشأ عنها أعطيت منزلة كبيرة في دين الله، فإذا لم يستفد المرء منها ما يركى قلبه وينقى قلبه! ويهذب بالله وبالناس صلته فقد هوى.

إن العبادة هي علاقة بينك وبين ربك، أما السلوك فهو علاقة بينك وبين الناس، ولا بد أن تنعكس العلاقة بينك وبين ربك على العلاقة بينك وبين أفراد المجتمع، فتحسنها وتهذبها.

العنصر الثالث: أخلاق الصائمين بين الواقع والمأمول.

إن من يشاهد سلوكيات المسلمين في الوقت الراهن يجد انفصاما وانفصالا كبيرا في مجال الأخلاق بين النظرية والتطبيق أو بين الواقع والمأمول؛ فترى الكثير - إلا من رحم الله - يصوم عن الطعام والشراب وما فتر لسانه عن الغيبة والنميمة والسب والشتيم وإيذاء

الآخرين، بل يكون أحدهم صائماً ويسب الدين!! ويقول: يا عم الشيخ سببت الدين في نهار رمضان فهل صيامي صحيح!!! وآخر يصوم ولا يصلي ويسأل: يا عم الشيخ هل صومي صحيح!!! والله إن هذا لواقع مؤلم لحال الصائمين!!

انظر إلى حال النبي وصحابته، فعن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أنّ سعد بن هشام سأها فقال: يا أم المؤمنين: أنبئني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: أليس تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: «فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن» (مسلم) ومعنى ذلك أنه كان يطبق كل أوامر القرآن ونواهيه، ويعمل بكل أحكامه ووعده ووعيده، فهكذا يكون خلق المرء القرآن ولا سيما في شهر القرآن.

وسئل بعض العلماء عن علامات حسن الخلق في رمضان فقال: هو أن يكون كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان، قليل الكلام كثير العمل، قليل الزلل قليل الفضول، براً وصولاً وقوراً صبوراً شكوراً رضيعاً حكيماً رفيقاً عفيفاً شقيقاً، لا لعاناً ولا سباباً ولا نمماً ولا مغتاباً ولا عجولاً ولا حقوداً ولا بخيلاً ولا حسوداً، بشاشاً هشاشاً يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ويغضب في الله فهذا هو حسن الخلق.

وقال جابر رضي الله عنهما: "إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم ، ودع أذى الجار ، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك ، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء"

وقال الحسن البصري - رحمه الله تعالى - "معالي الأخلاق للمؤمن، قوة في لين، وحزم في دين، وإيمان في يقين، وحرص على العلم، واقتصاد في النفقة، وبذل في السعة، وقناعة في الفاقة ، ورحمة للمجهود، وإعطاء في كرم، وبر في استقامة"

إن من صام في نهار رمضان، ولم يصم لسانه من غيبة الآخرين وهتك أعراضهم، ولم تصم يده من إيذاء الآخرين والنيل منهم، ولم يصم قلبه من الأحقاد والغل على إخوانه المسلمين، فإن صيامه ناقص، وفيه تفريط كبير لحدود الله.

وما معنى حقيقة الصيام إن كان المرء يصوم عن الطعام والشراب، ولكنه لا يصوم عن السباب والفحش والبذاءة باللسان، ولا يصوم عن غض البصر عمّا حرّم الله؟!

ذكر الإمام ابن رجب - رحمه الله - أنّ بعض السلف قال: "أهون الصيام ترك الشراب والطعام. ويقول الإمام ابن رجب أيضاً: " صيامنا هذا يحتاج إلى استغفار نافع، وعمل صالح له شافع، كم نخرق صيامنا بسهام الكلام ، ثم نرقعه ، وقد اتسع الخرق على الراقع"، والمقصود أنّ من أراد الصوم الحقيقي فليحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى ، ويذكر الموت والبلى، ويريد الآخرة فيترك زينة الدنيا فهذا عيد فطره يوم لقاء ربه وفرحه برؤيته.

عباد الله: إنه ينبغي أن نربي أنفسنا على الأخلاق الفاضلة، ونجعلها سلوكاً نتعامل بها في واقع الحياة قبل أن يأتي يوم لا ينتفع الصائم بصومه، ولا المصلي بصلاته، ولا المزكي بركاته. فعن أبي هريرة: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتدرون ما المُفلس؟! قالوا: المُفلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: إنّ المُفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وركبةٍ، ويأتي قد شتمَ هذا وقبذَ هذا وأكلَ مالَ هذا وسفكَ دمَ هذا وضربَ هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيته حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذَ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار." (مسلم)

فرمضان شهرٌ للمراجعة والتغيير، والتربية والتهديب للنفوس، ومن هنا نستطيع أن نقول: إن الصوم مدرسة أخلاقية كبرى، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشِرْبَهُ» [صحيح البخاري]، والمعنى: أن الصوم إذا لم يحجز صاحبه عن شهادة الزور، وقول الزور، وما شاكل ذلك من سيء الأخلاق ، فإنه صوم لا طائل منه وما استفاد صاحبه سوى الجوع والعطش ، وهو ما يؤكد قول النبي (صلى الله عليه وسلم): «رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ ، وَرُبَّ قَائِمٍ

